من تراب (٢٨١) بئر الخيانة (*) الطريق!

لبعض الناس قدرة عجيبة على لوى الأشياء، وتسميتها بغير مسمّاها فتقلب المعانى والقيم إلى أضدادها، فتعتبر الخديعة أو الخيانة شطارة، وقد تعد السطو فروسية، أو تصم الحذر من الخيانة بأنه جاسوسية، وتخلط المبادئ بالسياسة والسياسة بالمبادئ، لتختار حين تريد المسمّى الذى تريد !

قرأت مؤخراً رواية لقصة مؤسفة سقطت فى بئر الخيانة حتى القاع، ومع ذلك لا ترى ما كانت فيه من خسة وإفك ووضاعة، والأغرب أن تحرص على روايته للناس، لا ترى ولا تستطيع أن ترى ما سقطت فيه، وتتصوره من قصص البراعة فى مقاومة السياسة انتصاراً للمبادىء والدعوات، مع أن ما فعلته هو عين السياسة ولكن فى ضعة وخسة أبعد ما تكون عن القيم والمبادئ الدعوية التى تتشح بها وتأخذ على الآخرين مخالفتهم عنها !

لا تجد مجرما أو صاحب خطيئة إلاّ ويحاول تبرير جرمه، وقد يرتاح بينه وبين نفسه إلى تبريره المصطنع .. هذا ما يسميه علماء النفس بحيلة " التبرير"، وهى من الحيل والآليات الدفاعية التى يهرب بها الآدمى من مواجهة ذنبه أو خطيئته .. والتبرير كذب واحتيال على النفس، ولكن باللا وعى، بيد أنه إذا استهدف التبرير إقناع الآخرين خرج من منطقة اللاوعى إلى منطقة الوعى، وصار كذبا مكشوفا لصاحبه، ولذلك فغالبا ما يسعى لتغليفه لينطلى على الآخرين، ويتقبلوا ما يسبغه على أفعاله السيئة أو

(*) المال ٢٠٠٩/٦/٢٢

المخادعة أو المنحطة من تبريرات تردها إلى الحصافة أو النباهة أو السواء !!

لا يختلف أحد على أن الطعن فى الظهر ذميم لا ينتمى إلى شمائل الفروسية أو شجرة المبادئ .. فلا بد له إذن من تبرير حتى لا يصطدم الطاعن بالفروسية والمبادئ التى يتظاهر بالتمسك بها .. وهذا التبرير معروف فى علم النفس ولدى علمائه وأطبائه، ولكن العجيب أن يُقدم التبرير إلى الناس فيكشف سعيه لتبرير فعلة ذميمة لا يقرها الدين ولا الأخلاق وإن تفشت فى دنيا السياسة !

ربما كان عذر صاحب " آلية " التبرير، أنها عملية تلقائية تجرى فى اللا وعى، فلا يلمسها بدقة أو بوضوح، ولكن حال التبرير يمضى بلا عذر ولا ذريعة إذا كان مجدولا فى منطقة الوعى، يتشح اتشاحا كاذبا بالدين ليمضى إلى نقيض الدين، وبالمبادئ التى ينقضها ويريد انخداع الناس بذرائعه وربما بتباريكهم لها !!

لست أريد أن أشغلك بماذا فعل السيد الراوى الأريب ؟! ولا بتفاصيل ما روى تدبيره وتخطيطه وترتيبه ولقاءاته سراً وراء أستار الخفاء ليبر بليل طعن من أراد طعنه فى الظهر، ولا تفاصيل ما استباح به أن ينسج خيوط مؤامرة خسيسة يستعين فيها بالشيطان للطعن غيلة، ولكن العجيب اللافت أن يعتب على رفاقه أنهم حذرا منه رصدوا ووثقوا ما فعل، واعتبر رصدهم تجسسا ومواجهتهم له خيانة دون أن يستطيع توصيف ما يفعله هو بتوصيفه الصحيح !

ومع أن أمارات هذه الخيانة فاحت من قبل أن يفصح المتفاحص عنها بل وكررها قبل ذلك الإفصاح مرتين، حتى بلغت بالتكرار حد الإدمان، إلاّ أنك لن تستطيع أن تقاوم ذهولك من جرأته غير المتفطنة على سرد ما فعله، ناهيك بالتباهى به، فلم نعرف قط صاحب خيانة نكراء يتباهى بخيانته، أو مقارف جرم يتفاخر بجرمه، أو جانحا عن الحق يستعرض

جنوحه فى فخر وكأنه سطر به صفحات للبطولة والمجد .. يبدو أن تكرار المغالطات واستعارة المبررات واستمراء الحيل، يطبع فى النفس خللا تفقد به القدرة على النظر وموازنة الأمور والتمييز بين الحق والباطل، وتصاب من جرائه بعمًى ضرير لا ترى معه قبح ما تفعل ناهيك بأن تفخر وتتباهى به!!

على قدر ما يصيب القارئ من امتعاض وهو يقرأ تفاصيل خطة وخطوات الخيانة التى سطرها بطلها ببراعه، على قدر ما يشفق من انعدام فطنة الراوى المتباهى وعمى بصيرته، ويشكر لله عزّ وجل أنه سبحانه يمهل ولا يهمل، فجعل الفاعل نفسه يقدم بيده تفاصيل ما اقترفه خلافا للدين والحق والقيم والأخلاق ! ليلحق به الخزى وبفعلته النكراء التى ساقها على سبيل التفاخر والمباهاة !!